الفوتوغرافيا الصحافية بالمغرب

بعض قضايا الإنتاج والتلقي

جعفر عاقيل

المعهد العالي للإعلام والاتصال– الرباط

قد تبدو الغاية الأساسية من فوتوغرافيا غلاف مجلة أو صفحة أولى لجريدة هو شد نظر القارئ/ المشاهد وإثارة انتباهه واستفزاز فضوله المعرفي والفني والجمالي، لكن، علاوة على هذه الوظيفة المركزية، تقوم الفوتوغرافيا الصحافية، من خلال انتقاء الحقل المصوَّر وزاوية النظر والطريقة التي تتوزع بها الأشياء والموضوعات المصوَّرة وأيضا من خلال الألوان المختارة وتدرجات النور والظلال وكل الإواليات والعلاقات والتركيبات الموظفة، بإعادة تشكيل وعي المشاهد ومساءلة متخيله وخلخلة ذوقه. بل أكثر من ذلك، إن لهذه السلسلة من المكونات دورا كبيرا في إعادة تركيب عناصر العالم المرئي الذي يحيط به وتمثل قيمه.

1- الغلاف: واجهة للتواصل والإغراء

دفع التحول الذي عرفه مجال الإعلام المغربي عموما والصحافة المكتوبة تحديدا في العقد الأخير سواء على مستوى استيقاء المعلومة وإيصالها للمشاهد، أو على مستوى الشكل الذي سيحويها، بـــ "المسؤولين الفنيين" على صفحات الجرائد والمجلات أن يفكروا بجدية في موضوع الصفحة الأولى والغلاف لا باعتبارهما وسيلة للتلفيف أو التزيين وإنما باعتبارهما واجهة لتقديم المادة الإعلامية والتعريف بها وبوصفهما واجهة للإثارة والإغراء والتواصل. لقد صار كل من الغلاف والصفحة الأولى الأداة الوسيطة بين المشاهد والمجلة أو الجريدة، إنهما باب العبور إلى عالم الكلمة وذلك بتوظيف ترسانة من الألوان والخطوط والحروف والتركيبات البصرية.

لقد أدرك "المسؤولون الفنيون" جيدا أنهم ببلوغ إثارة عين المشاهد سيبلغون أيضا إثارة فضوله في القراءة وإلا سيحصل عكس ذلك فيقع النفور والتراجع، وهي حالة الصفحات الأولى لبعض الجرائد

وأغلفة المجلات المزعجة والقبيحة التي تطل علينا بكثرة من واجهات المحلات والأكشاك بدون أدنى احترام لحق المشاهد في المعلومة ولحساسيته الجمالية وبجهل تام أو تجاهل للتربية الفنية التي قد يضطلع بها كل من غلاف المجلة أو الصفحة الأولى للجريدة مثل تهذيب حس المشاهد والرفع من ذوقه.

بناء على ما سبق، سنحاول قراءة لفوتوغرافية صحافية نشرتها مجلة "Femmes du Maroc" على صفحة غلافها لشهر نونبر2009 العدد 166 وتحت عنوان رئيس "Nadia Larguet bientôt maman" للوقوف على بعض مميزات الفوتوغرافيا الصحافية وتأثيراتها في المشاهد وخاصة التحولات التي عرفتها هذه الأداة في الإخبار والتواصل والجماليات بالمغرب. هذا دون أن نغيب عن أذهاننا أن السياق الذي يأتي فيه هذا الغلاف محكوم بمشكلة العلاقة بين المرئي والمكتوب في ثقافتنا وبالمنافسة الشرسة بين الوسائط الإعلامية وبقانون سوق الاستهلاك وبتطورات الحقل الإعلامي بالمغرب.

2- التأطير وإنتاج الفرجة

تحاول الصورة الفوتوغرافية بالمغرب بمختلف أشكالها: البطاقات البريدية والفوتوغرافيا الإشهارية والفوتوغرافيا الصحافية والفوتوغرافيا الفنية،...الخ، تأكيد حضورها وتقويته إلى جانب الوسائط البصرية الأخرى باعتبارها أداة للتواصل والتعبير والجمال وإنتاج الفرجة وباعتبارها كذلك قناة للمراودة والتحريك. وتعمل الفوتوغرافيا الصحافية، وبإصرار كبير، من خلال إنتاجات بعض الفوتوغرافيين، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: عبد المجيد بزيوات، زليخة أسبدون، كريم السلماوي، إبراهيم تواكر...الخ، إضافة إلى فوتوغرافيا الروبورطاج من خلال صور داوود أولاد السيد

وعبد الرزاق بن شعبان وجمال المحساني...الخ وفوتوغرافيا الوثيقة من خلال صور سعاد كنون، على نقل حالات للمشاهد المغربي تجسد الحياة اليومية للأفراد والجماعات كما تجري وقائعها في الفضاءات العمومية أو الخاصة كمحاولة منهم للعب دور الوسيط بين المشاهد والعالم الخارجي المتميز تارة بدفء العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع وتارة أخرى بجمودها أو توترها وأيضا لتمثيل صخب المعيش اليومي بمختلف أحزانه ومسراته.

ويشغل عنصر التأطير مكانة بارزة في هذه السيرورة على اعتبار أنه يقوم بتوجيه نظر المشاهد نحو حالة أو حدث معين وذلك من خلال تمثيل لحظة تبرز أشياء وتخفي أخرى وفي أحيان كثيرة من خلال الاهتمام داخل التأطير الواحد بتبئير عنصر صغير أو جزء منه. بعبارة أخرى، يقوم التأطير بتحويل نظر المشاهد نحو أشياء يريد هو أن يُطْلِعهُ عليها. بل أكثر من ذلك، إن انتقاء تأطير فوتوغرافي دون آخر، معناه تبني نموذج في تمثيل الواقع وفرض طريقة في استقباله وتمثله. بناء على ماسبق، يمكن القول، إن وظيفة التأطير في الفوتوغرافيا عموما والفوتوغرافيا الصحافية تحديدا، لا تنحصر فقط في رسم حدود الموضوع المصوَّر؛ بل تتعدى ذلك إلى إعادة بناء رؤية الفرد وتصوره لحدود العالم المحيط به شأنها في ذلك شأن تأثيرات باقي الوسائط الأخرى في ذهن المشاهد. ويمكن أن نزعم، أن أبرز الحلقات التاريخية التي كان للفوتوغرافيا فيها تأثير ملموس في كل من تاريخ الفن والمشاهدة هو تاريخ التأطيرات بدءا من Nadar مرورا بـــ Robert Frank وصولا عند Andy Warhol و Nobuyoshi Araki.

نستخلص مما سبق، أن مجموع التراكمات ومستويات الوعي الذي حققه نظر المشاهد تاريخيا وسيستمر في تحقيقه متأثر بقوة ومتفاعل بشكل كبير مع تاريخ التأطيرات الذي جاءت به مختلف الوسائط. ولعل في ظهور وسيط الحاسوب في مشهد الوسائط المتعددة، على سبيل المثال، أكبرشاهد على هذه التأثيرات. فبقدومه أصبح المشاهد أمام صور أشكالها غير مألوفة بل أكثر من ذلك صور تحمل رؤى جديدة وأفكارا وأسئلة مغايرة حول نظام النظرة والذاكرة، صور تفاجئ المشاهد يوما بعد يوم بلغتها ومفاهيمها وأساليبها الجديدة عن معنى التأطير ومعنى الحقل وخارجه في الصورة، وكذلك تطرح عليه أسئلة محرجة عن فكرة الزمن ومفهوم التمثيل وماهية الحقيقة التي تمثلها هذه الصور وكذا مدى درجة تفاعل جسد مستعمل الحاسوب مع التمثيلات التي يتلقاها. بل يمكن القول إن ثقافة المشاهد عموما ونظره تحديدا كلاهما بات موضع شك وسؤال[1].

تجعل الفوتوغرافيا الصحافية، شأنها في ذلك شأن باقي الأجناس الفوتوغرافية الأخرى، من عنصر التأطير موضوع اهتمام كبير سواء على مستوى بناء الحدث أو على مستوى اختيار وِضعات الموضوع المصوَّر هذا علاوة على الاهتمام بالتعليقات الموازية للتأطيرات المصوَّرَة والتي تحاول هي الأخرى جاهدة العمل على تحريك شعور المشاهد وإيقاظ ذاكرته واستفزاز تاريخه الفردي والجماعي وتوجيه تأويلاته. إن الفوتوغرافيا الصحافية بحسب هذا المعنى، تخضع لانتقاء دقيق ولقَصْدِية إيديولوجية ولاختيارات تقنية وجمالية وأخلاقية مسبقة.

3- كيف تصبحين أمًّا قريبا

تفرض الفوتوغرافيا الصحافية على عين مشاهدها أثناء فعل تلقيها، أن لا تكتفي بوظيفة التسجيل فقط وإنما ممارسة نشاط ذهني تركيبي. أي أن تدقق في ملاحظة الجزئيات وتصنيفها وتحليلها ثم تأويلها وكل ذلك في ظرف زمني قصير جدا. وتلعب حاسة النظر في هذه السيرورة دورا هاما شبيها بالمصفاة وهي تنقل صورة الموضوع المصور: هل هو في وضعية ثابتة أم متحركة؟ ما هي نوعية الألوان التي تضيئه؟ ما هي درجات النور التي تغمره؟ ما حجم الأشكال التي تأخذها الموضوعات التي تجاوره؟ ما هي المسافة التي تفصل بينه وبين الأشياء والموضوعات الممثلة معه؟ إن هذه المستويات مجتمعة هي التي تشكل صورة الموضوع المدرك وشكله وحجمه في ذهن المشاهد. وتسهم التجربة الإدراكية للمشاهد بنسبة كبيرة في تشكيل هذه الصورة. ذلك، أن أي فعل إدراك للمشاهد، رغم ارتباطه الشديد بلحظته الزمنية والمكانية، يبقى معرضا للاختراق من قبل صور وقعت في الماضي واحتفظت بها الذاكرة لتعيد تحيينها من جديد وإحياءها ثانية. أليست المعرفة التي يملك المشاهد عن الأشياء عموما تُلَخص النتيجة النهائية التي بلغتها تجربته الإدراكية في تصنيف الموضوعات وتمييزها ثم تسميتها؟ إن التجربة الإدراكية للمشاهد باعتبارها خزانا للقيم والعادات والسلوكات والعلامات والسنن الثقافية هي العنصر الذي تحاول الفوتوغرافيا الصحافية التركيز عليه واستهدافه خلال مراحل بنائها لإرساليتها.

ويمكن إدراج فوتوغرافية غلاف مجلة "Femmes du Maroc" في السياق نفسه، إذ تعيد من خلال عناصرها ومكوناتها إنتاج مجموعة من الرموز والعلامات والمعاني التي ترسخت في ذاكرة المشاهد عن تصوره للمرأة وتحديدا الأم وكذلك عن مفهومه للجسد وخاصة في حالة العري. فالجسد كما تمثله كلية الصورة هنا يحين عند المشاهد أحاسيسه وذاكرته ونظامه الإدراكي ومعارفه وثقافته الخاصة بالموضوع الممثل وخاصة القيم التي وصفها به المجتمع. أي، ذات تتلخص وظيفتها الأولى والطبيعية في الإنجاب وتحقيق اللذة. صحيح، أن النظرة الأولى للغلاف/المتن الذي نحن بصدد قراءته تعطي الانطباع

على أن الغاية الأساسة المتوخاة هي استفزاز المشاهد الذي لم يتعود على مشاهدة مثل هذه الوضعيات أو الحالات الإنسانية في الصحافة المغربية، لأن هذا الغلاف يشكل بحق حدثا بارزا في تاريخ الصحافية المغربية وفي تاريخ الفوتوغرافيا الصحافية المغربية، لأن صورا من هذا القبيل تتطلب مصالحة مع الذات وجرأة عالية للإفصاح عن أسرار الجسد بهذا الشكل الفاتن والملفت للنظر أكان أنثويا أم ذكوريا. إن الغلاف نجح في مستوى معين من إحداث بعض التناقض أو التصادم أو الشرخ بين القيم التقليدية والقيم الحديثة بخصوص الموضوع. بحيث يمكن قراءة الصورة أو تأويلها كذلك باعتبارها تمردا على النظرة التي رسخها المجتمع عن المؤسسة الزوجية وطبيعة العلاقات التي يمكن أن تسود داخلها. أي حياة مقدسة لا ينبغي الكشف عن أسرارها وحميميتها. ولكن قليلا من التدقيق والتأمل في نظرة الموضوع المصوَّر وتقاسيم وجهه وحركات كل من اليدين ووِضْعَة الجسد، يكشف أن هذه الحالة الإنسانية التي تقدمها المجلة للمشاهد تتعدى حدود هذا المستوى في القراءة وأيضا مستوى توظيف الصورة فقط لتوضيح وتزيين مواد ملف العدد الموسوم بـــ"شروط الولادة بالمغرب وظروفها ومخاطرها" لتصير مادة بصرية تقوم أولا بالعمل على استدراج المشاهد لاستهلاك المجلة عبر فعل الاقتناء وكذلك من خلال فعل قراءة موادها وثانيا لإنتاج أو إعادة إنتاج بنية العلاقات السائدة داخل المجتمع حيث الأدوار والمهام بين الأفراد تتوزع بحسب الجنس والعمل والسن. ومن المكونات المدعمة لهذه الملاحظة المكون اللفظي الذي يرافق الصورة والموسوم بـــ« Nadia Larguet bientôt maman»، إن استعمال هذا المكوِّن يسهم، وبطريقة غير مباشرة، في ترسيخ بعض معاني هذه العلاقات ودلالتها. بل أكثر من ذلك، يعمل على توجيه المشاهد في تأويلاته حتى لا يقع التنافر أو التعارض مع مدلولات الصورة وما التصريح علنا أن Nadia Larguet، التي هي الموضوع المصوَّر، أضحت مقبلة على تطليق الحياة الزوجية "الخالية من الأطفال" والانتقال إلى الحياة الزوجية "الحبلى بالأطفال" سوى دليل على هذا الانتقال إلى حياة جديدة أي خوض تجربة الأمومة الخاصة. ومن المكونات البصرية التي اعتمدتها الفوتوغرافية في تعضيدها لهذه الإرسالية اشتغالها بجسد عاري يخفي مفاتنه بشكل ذكي لكنه في الوقت نفسه يفصح علانية عن حمله لجنين باتت ولادته وشيكة، جسد لا تفارقه الابتسامة وهو ينظر بتحدي إلى الشَّبَحِية l'objectif de l'appareil photo ويتمتع بالرشاقة والسرعة كما تجسد ذلك حركاته والوِضعة التي هو عليها، وكلها مكونات تفوح بدلالات الشباب والحياة والتجدد ثم الولادة. وينضاف إلى الوضعية الإنسانية والعوالم الثقافية التي تحيل عليها هذه العناصر، الحالات النفسية والدلالات الزمنية التي يعبر عنها مكون اللون، ولعل إصرار الفوتوغرافية والمصمم الفني للغلاف على تقسيم ألوان الصورة وتوزيعها على هذا المنوال

لايعدو مجرد دليل على معرفتهما الخاصة بالقواعد الأساس للألوان وأصولها والإمكانات التي تتيحها عملية المزج والتدرج والتعارض والإشباع واللمعان بين الألوان ودليل على معرفتهما الواعية بمختلف الحمولات الدلالية التي قد تضفيها تركيبة الألوان إلى بناء صورة الغلاف، أي ذلك الأثر الذي تخلقه في ذوق المشاهد ووعيه وسلوكاته وقيمه. إن المزج بين اللون الأسود وتدرجات اللون الرمادي واللون الأحمر الوردي منح الصورة بعدا دلاليا خاصا. ذلك، أن اختيار اللونين الرمادي والأسود بوصفهما مفردة للإبراز وأسلوبا ورؤية في تمثيل الأشياء جعل الصورة تشغل موقعا متقدما على حساب الإرسالية اللفظية. قد يبدو للمشاهد في الوهلة الأولى، أن قدسيتهما تتراجع وتذوب بعض الشيء أمام حدة نور اللون الأحمر الوردي، لكن حينما تتناظر عينه مع غلاف المجلة تصطدم بسلطتهما اللونية. أليس اللون الأسود هو النفي المطلق للنور ولكل الألوان أيضا؟ ألا يمثل في متخيلنا صور الهيبة والوقار؟ ألم يشكل ولعقود طويلة في ذاكراتنا الجمعية مرادفا للظلام ولمشاهد التخشع التي لا تزيد الفرد إلا قوة وشعورا بالسيادة والسيطرة؟ إن كل هذه الانطباعات والأحاسيس والمواقف التي يخلقها الغلاف عند المشاهد تولد الإحساس والرغبة والفضول في معرفة أسرار الصورة وإدراك خباياها. فيقع الاستدراج والتماهي ومن ثمة استحضار كل التمثيلات المضمرة والمعلنة، الملموسة والمجردة، المحرمة والمحللة عن الجسد والأنوثة والعري. ويقوم اللون الأحمر الوردي، الذي تم توظيفه وتوزيعه على مساحة الغلاف بطريقة ذكية، سواء تعلق الأمر بالحيز المخصص لعنوان المجلة أو الحيز المخصص لبعض المفردات المكونة لعناوين مواضيع العدد، بدوره بترسيخ المضامين والدلالات نفسها. إن اختياره لم يكن اختيارا اعتباطيا أو من باب المصادفة بل جيء به لتعضيد مفهوم الأنوثة والعذرية والرغبة والشهوة. وما الشكل النهائي الذي ظهر به على الغلاف، أي إحاطة تحيط بجل أركان الموضوع الرئيس في الصورة سوى تأطير مضاعف للإغراء والجذب والفتنة والغواية أي التأكيد على غايات ورهانات وقصديات كل غلاف مجلة يسعى لبلوغ التميز وتحقيق الفرادة وولوج الشهرة.

كانت هذه بعض الملاحظات التي حاولنا من خلالها رصد وقراءة بعض التحولات الذي عرفها مجال تصميم أغلفة المجلات والصفحات الأولى للجرائد بالمغرب في السنوات الأخيرة، سواء على مستوى الأشكال أو على مستوى المحتويات، حيث يلاحَظ توجه متزايد نحو الإثارة والإغراء وهو طبعا تحول أسهم فيه بقسط وافر إلى جانب وسيط الفوتوغرافيا كل من شاشة السينما والتلفزة ومختلف الوسائط البصرية المعاصرة. الأمر الذي يتطلب استعدادا خاصا ودربة وحنكة كبيرين في التدبير لكسب رهان الحياة الجديدة لأن انعكاسات هذه الوسائط بالغة التأثير في الجهاز الإدراكي للمشاهد وتمثلاته الذهنية

لمحيطه وفي تاريخ المشاهدة عنده المكون من أسلوب تصويري يقوم على زخارف الخط العربي والسجادات والزرابي والمنمنمات...الخ، أي يختلف كلية عن تقاليد المشاهدة المعاصرة.

[1] يمكن الاستئناس، في هذا الخصوص، بمقال:

- Paul VIRILIO, "Le règne de la délation optique", in *Manière de voir (*Révolution dans la communication), n°46, éd. Le Monde Diplomatique, Paris, Juillet- Août, 1999, pp. 37-39.

صدر للشاعر محمد علي الرباوي